صفحة من الطفولة

للفيلسوف الكبير تولستوى

استصحبنا أبي قبل الغداء لرياضة نقوم بها في ميادين موسكو وشوارعها ، ومع انني قمت بمثل هذه الرياضة اكثر من مرة منذ أقمنا بهذه المدينة الا انني لم أدرك معنى لعادات أهل موسكو الغريبة في لبسها ، كما انني لم أعرف سبب عدم التفات الناس الينا فانهم لم يكتفوا بعدم تحيتنا بل أن البعض كان ينظر الينا شزراً ، والبعض الآخر يصدمنا في الطريق بغلظة وفظاظة كأنا لم نكن ابناء ذلك القري « ب . ا . ارتينوف » النبيل مالك القرى والضياع العدة ، ومن بينها قريتنا بتروسكوه وخاتاروكا

لقد أجهدت نفسي في البحث عن علة هذا الازدراء العام ، ففي مبدأ الامر ظننت أن السبب يرجع الى عدم عنايتنا بالملبس ، اذ ربما كنا فيه مشابهين لصغار الفلاحين ، لكننا مع ذلك كنا نرتدي معاطف من الفرو الثمين منسقة التفصيل تبعث في نفس من يراها على احترام مرتديها ! ! ثم فكرت في ان السبب ربما يرجع لعدم وجود أحد من المعارف أو الاصدقاء لكن الايام العدة كانت تمر دون أن يزورنا أحد من الناس أو يلتفت الينا ! ! وأخيراً ما كدت أن السبب في انقضاض الناس من حولنا ربما يرجع لسبب غضبهم ونفورهم منا ، وحاولت أن أبحث لمعرفة هذا السبب ؟!

وكنا في مسيرنا قد وصلنا الى ميدان بريشنسكي ، وكان والدنا يسير بتؤدة وبطء بينما نحن كنا نتسابق حول أشجار الزيزفون التي تساقط اوراقها ، ونجري فوق العشب الجاف الاصفر اللون ، كانت تسير أمامنا اذ ذاك سيدة متأنقة في لباسها تصحبها فتاة في السابعة من عمرها مرتدية معطفاً من المخمل الاحمر وحذاء من الفرو والفتاة بيدها طوق تلعب به فتسيره بكسل وخمول لم أفقه لها سببا ! ! وربما ظن الناس أن الفتاة لن تسير الطوق الى حد محدود لا أن تسيره لمجرد اللهو فقط وجدما تختلف فتاتنا هذه عن « ليوتشكا » و « يوسنكا » اللتين كانتا تبان بنشاط في ردهات منزلنا ، فتهتز من وتبها الاواني والاثاث ! !

أما والدنا فحيا السيدة والفتاة وسار الى جانبيهما ، ثم قدمنا لهما ، فحيتاهما برفع

القبعات وقد سبق أن أعربت عن تلك الدهشة العظيمة التي تولتني من عدم وجود مسلم أو مصانع أو محل لنا وان الجميع كانوا ينظرون الينا بازدراء . أثر في ذلك ، وتوقعت نتيجته السيئة فقد وقعت في قبض ما كان يجب تماما ، وأصبحت ذا خلق المستعبد الحقير من الناس ؛ فاني بعد ان رفعت قبعتي لم ارجعها الى رأسي بل بقيت في يدي برهة هي رهبة الاحترام والمسكنة ! ! فلمسكني فلوريا من كم معطفي وقال .

« لم بقيت ممسكاً قبعتك في يدك ولم ترجعها الى رأسك ؟ ؟ انك لتشبه والله عبداً خادماً مطيعاً ! » . اثرت في ملاحظة فلوريا هذه تأثيراً عميقا فرفعت القبعة الى رأسي بخبل وتركت الجميع على الفور وانتقلت الى الجهة المقابلة من الطريق

والسيدة المذكورة ابنة عم ابي واسمها فلاخينا وكانت وجهتها أي أنها تقصد شارع تيفرسكوي لذلك سرنا سويا ما بقي لنا من الطريق ويظهر أن أبي كان يحب ابنة عمه حبا جما ، فرجاها أن ترسل أكبر ابنائها الى منزلنا مساء ذلك اليوم لاننا سنسمع من يحضر بالطرب والرقص ، فقبلت السيدة بلا تردد . وصلنا في مسيرنا الى شارع نيكتسكي فلاحظت ازدياد الجمهور فيه وجله من أفراد الطبقة العليا ولاحظت أن فلاخينا تبطىء في السير اذ ذاك وتتكلم الفرنسية : ثم وصلنا الى ميدان تيفرسكوي فاذا هي تدعم صوتها وتدخل (النبن) على الفاظها وتنادي ابنتها « ماشنكا » باسم « ماري » ! !

تولتني الدهشة لهذه المظاهر وكنت أعرف أهمية ميدان تيفرسكوي فاجتهدت أن اتخذ لنفسي أيضا مظهر انسان خطير رفيع المقام ، وتمهلت في مسيري شأن الكبار والعظماء ! !

ثم تركتنا السيدة وابنتها وواصلنا السير الى شارع تيفرسكايا حيث قصدنا محلا للفطائر والحلوى ليبتاع منه أبي مايلزم لحفلة المساء ، دخلنا فاذا المحل فخم البناء ، واسع الأرجاء ، ثمين الاثاث ، يبهر نظرك ما تجده من النظافة والعناية بشؤونه . ولقد ظننت أن كل مايباع فيه لا يتعدى صنفي الفطير والحلوى . لكني وجدت غير ما ظننت ففي ردهة المحل مائدة كبيرة صف عليها من الفطير ما تنوع صنعه واختلف لونه وحجمه . ولم يكن الفطير كل مالفت نظري ؛ بل كان هناك شيء أهم منه . فقد ظهر

من خلال زجاج الخزائن أنواع من الحلوى كالمربى والمربى وزجاج الشراب ، وقد شوقني كل ذلك أن أتذوق منه مايلذ ويطيب !!

وجلست بالقرب من احدى الخزائن سيدة مرتدية الفاخر من الثياب ، فثوب من الحرير تعلوه ياقة مثل الياقة التي تلبسها أمي ؛ وكانت تطالع في رواية فرنسية . أخذتني الدهشة . وبهر نظري ما رأيت حولي ، فلم أعرف الى أي شيء أنظر ، ثم تساءلت ان كان يجوز أن أمدّ يدي لتفرهذه البسط المطروحة على الارض !! وتساءلت أيضا ان كان يجوز لي أن أتقدم بالشكر العظيم لتلك السيدة الجالسة ، وهي صاحبة المحل بلا شك ، لانها عرضت علينا كل هذه الكنوز !! وأجازت لنا الدخول في المحل !!

أما السيدة فما وقع نظرها علينا حتى قامت لساعتها وسألت أبي بالفرنسية عما يطلب ؟ واما انا فنظرت اليها وقلت في نفسي : « ان هي الا بائعة ، ولكن ما أجمل هندامها !، وما أنصع بياض ساعديها! « وما أفصح كلامها الفرنسي وأوقع لفظها! » والحق انه لم يكن ليروق لي أن ارى بائعة تتزيا بما يشبه زي امي . وتطالع فوق ذلك الرواية الفرنسية ! لكني تذكرت! وان تلك المناظر كلها ربما كانت عادية فيها. وكم كنت اتمنى ان تشهد تلك المناظر « ناتالي سافينكا » او الصياد « طورزق » فاليهما واليهما فقط كان يمكن ان اسر دهشتي العظيمة !

طلب ابي الى السيدة وطلين من (الملبس) فاسرعت تلك التي أعجبني مظهرها الخارجي الى اخراج كيات من هذا الصنف من الادراج ووضعها في كفة ميزان من نحاس براق . وكان ابي واقفا الى جانب السيدة يكلمها بصوت منخفض . ولاحظت أنه يبتسم لها ابتسام عاشق ! ويتوسم في عينيه الاعجاب والولع بها والبائعة تواصل عملها وترد بين حين وآخر على كلام أبي بلسان فرنسي فصيح صحيح !! وحينا آخر تراها وقد قوقعت بالضحك ملء الشدقين

ثم التفت الى أبي والتقى أنظارنا : وارتسم في نظري مايفسر : « اني أراقبك! » وكان رد نظراته مايفسر: « انك على ضلال مبين في رقابتك ومع ذلك فانت فضولي!! »

وفهم ما أقصد وفهمت مايقصد في لمحة عين . لذلك تحولت نظراتنا فلم يعد احدنا ينظر الى الآخر .

ثم سألنا أبي : « ما الذي تطلبونه ياأولادي » حينئذ ترددت في الاجابة على سؤاله وتحيرت في أمري . اذ أن نفسي كانت تشتهي لفخر شيء احتواه المحل . ومن الجهة الاخرى كنت أخشى طلب شيء قد يوجد في المحل ماهو أحسن منه وأفخر !! وفيما أنا أفكر سبقني أبي موجها كلامه لسيدة وقال « ليحضروا لهم شايا وفطيراً » فنادت الفرنسية خادما اسمه « ارنست »

وارنست هذا شاب في مقتبل العمر قذر اللباس ، ظهر مسرعا حين نادته سيدته وقال انه سيقدم لنا الشاي في غرفة دلنا عليها ، فقصدناها جذلين فرحين ، جلسنا ، وكان بالغرفة مرآة كبيرة وقف أمامها فوريالبري صورته ويصلح من شأن هندامة ، وأما أنا فقد وقع نظري على عدة صحف اخذت أتوسطورها دون ان افقه لها معنى

ولم يأتنا الخادم بالشاي بعد ، فقمت وسرت في خفة ومهل الى باب الغرفة ، ونظرت عن بعد الي مرآة منصوبة في وسط الردهة ، فاذا صورة أبي والفرنسيه منعكسة عليها ، وكانت الآنسة جالسة والرواية بين يديها لكنها لاتطالع فيها بل تكلم أبي الذي كشفت عيناه عن غرام عميق وابتسمت شفتاه ابتسامة العاشق . أما وجهه فقد قرب وجهها قربا لاتجوزه آداب أو لياقة !! وظهر لي بجلاء تام أن يد أبي تداعب يد البائعة ثم هو يميل نحوها اكثر من ذي قبل .... ثم يغمض عينيه ..... ثم يمد فمه .... ثم يقبلها !!! لاأشك في ذلك لاني رأيته يمد رأسه بحركة سريعة ، لكنه يتوقف فجأة ويرتمي الي مقعد خلفه ، ويعلو وجهه احمرار الخجل !! عند ذلك يدق جرس الباب ويدخل شخص نظيف اللباس يحيي أبي بالفرنسية : « صباح سعيد ، ياسيدي » ثم يسير في طريقه ... وربما كان هو صاحب المحل .....

ورجعنا الى الردهة حيث أبي والفرنسية ؛ وكان يحمل الحلوى في يده ، وبواصل الحديث معها ، وأصبحت هي في نظري اكره الناس وابغضهم ؛ والغريب انني لم أعرف نوع العلاقة التي بينها وبين ابي ، ولكني استنتج انها علاقة ... لغرض !!

وختم ابي حديثه مع الفرنسية بهذه الجملة : « نعم فقد أصبحت الآن شيخاً !

وأشار بيده الى رأسه الاصلع ؛ واتضح لي بعد برهة أن أبي لاحظ من جديد نظراتي المسددة نحوه ؛ كأنني اوجه اليه استجواباً آخر !!! وبعد برهة قال لنا بفتور وشيء من التهم : « هيا بنا يا أولادي » !

وجدير أن أقول انني كنت واثقا من مغازلة أبي للفرنسية ...

لكن كان يستحيل علي أن أقرر له هذه الحقيقة ؛ بل لو أردت ذلك لما اجترأت ان أفوه به ! ! !

« السياسة »

استدراك آخر

ذكرنا في العدد الماضي أن مندوب الناصرة للمجلس المختلط خرج عن ارادة الطائفة وبعد التحري علمنا انه قام بمهمته خير قيام وأن سجل ذلك المجلس يحتوي على قرارات هامة كلها في مصلحة الطائفة وأن البطريرك ذاميانوس أبى وحاول في تفنيدها وقد شكاه كثيرون من أعضاء المجلس الى الحكومة فكانت تسوف وتماطل في ذلك العهد الباند هذا ما فهمناه نسطره على علاته اصلاحاً لذلك الخطأ